قصة قصيرة

الأستاذ ميشو

خيري شلبي

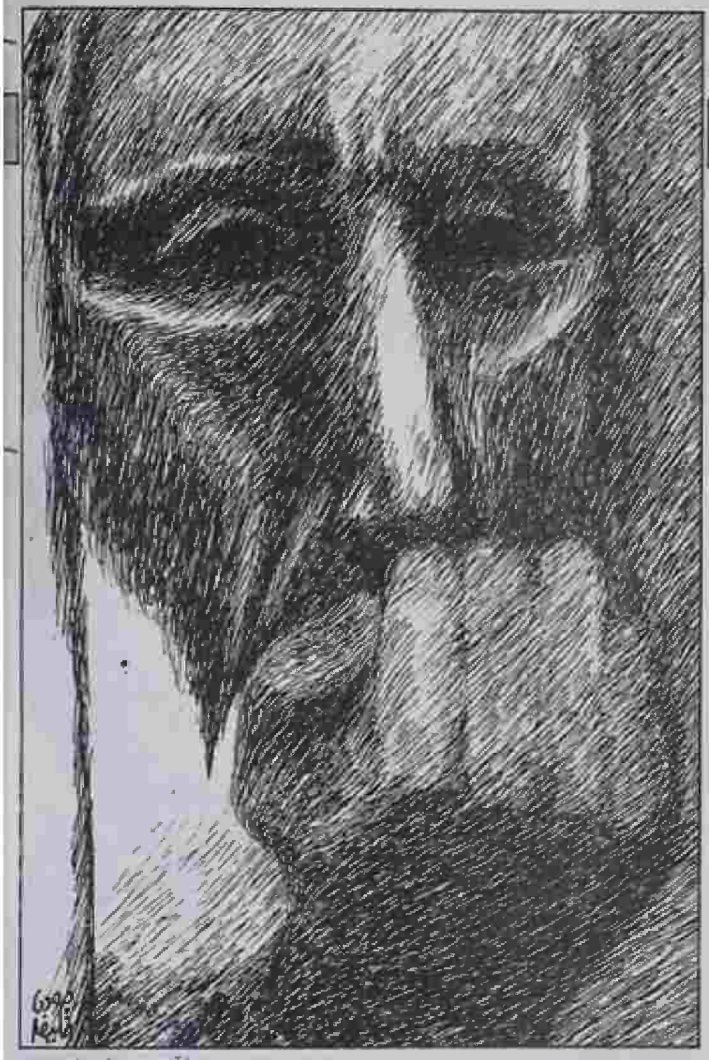

بريشة : جودة خليفة

(أ)

ضرب ماسح الأحذية ظهر الصندوق بظهر القرشة . والتظر ظل الأستاذ ميشو . مستمرا فى تصليح الجريدة . منهمكا . عاقدا ما بين حاجبيه . يتفحص وجهه المستطيل الشاحب . يحط شفتيه ويفتحها عن أسنان صفراء لا تليق بالقدى محترم مثله . يشد الأنفاس من السيجارة التى بلا فلتر . يحاول فى سطير ما . يتمطى شفتيه . يشد النفس . بعصبية شديدة يزيح الصفحة ثم يطويها إلى نصفها .

تذكر ماسح الأحذية انه لم يطارح نفسه على القرشة فان ينتهى . فضرب الصندوق مرة ثانية أعلى من الأولى . ثم ثالثة أعلى . فاعلى . أزاح الأستاذ ميشو . صفحة الجريدة عن وجهه ونظر إلى ماسح الأحذية فى غضب مكتوم . وقلق يرجة يمسك بنظرته الحرية .

احمر وجه ماسح الأحذية وارتبك . اشار الى القدم الطليقة . تمتم .

– عدم المؤاخذة يا سعادة البيه .

لكن الأستاذ ميشو . لم يعط القدم الأخرى . بل ظل يمسك بنفس النظرة . ثم انه قوى شفتيه فى استمرار وهو يضرب الصندوق بيأس الخلاء . على انه كظف غيظه وانزل قدمه عن الصندوق ووضع الأخرى مكانها واستأنف قراءة الجريدة .

اندفع ماسح الأحذية يمسح الحذاء صقا وتلميعا بعد أن تعب تعبا شديدا فى تنظيفه اولا من الأوحال المتكلسة فوقه . وكان يمثلت حواليه بحمر الاذنين وكأنه الهامة المتلوكية البيضاء تنظر عن رمادة .

(ب)

كان الصبح خطفيا قد شب عن الطوق ودخل الضحى المتعجل و مقهى زهار البيدان . يعج بالزبائن من مختلف الاشكال والالوان والأعمار .

قوى ماسح الأحذية نشاطه فى فرك . ضرب الصندوق بظهر القرشة ولكن فى رقة شديدة . ضربة لا تكاد تسمع . ثم انتظر . الأستاذ . ميشو . كان يضع جريدة ويتناول أخرى مطلقا زفرة . فرد هذه الأخرى وأشعل سيجارة . . رمى بعينيه فوق الصحيفة فى جولة سريعة . نظر إلى ماسح الأحذية فى استكبار .

هز ماسح الأحذية رأسه ناحية القدم الأخرى طالبا إياها . انتظر الأستاذ . ميشو . حتى انتهى من طى الجريدة على الصفحة الداخلية . ثم بهدوء شديد انزل قدمه عن الصندوق . وتمالل لمد وضع القدم الأخرى وزاح بقرا .

كانت أعجب قراءة شاهدت ماسح الأحذية فى حياته . فالأستاذ . ميشو . بقرأ سطرا وترنا كلمة ثم يقطع حواليه متفرسا فى وجوه الحضور كأنما يستكمل القراءة على وجوههم . الا ان أكثف الذى يوقع به وجهه عن الجريدة يرتد اليها مشدوها

(جـ)

على الناصية كان صاحب المقهى يجلس مع زبائنه . ينظر فى بلاهة إلى الجالسين وتبدو على وجهه السعادة من فرط ما يزيره الجالسون من ضجيج . وكان يتابع حركة ماسح الأحذية بدون تركيز . ولكن رعا لفت نظره أن ماسح الأحذية كان يسرح فى شرود طويل تروح يده وتجىء عشرات المرات . الخاطر برق فى ذهنه فجأة . فذا السبب يتطلع الباب دائما من تحت الأبط . وهى تهاب يدفع المقهى فيها . لا لشىء إلا لأن أجر هذه الالفة المسروقة على الصغير باسم المقهى . ماذا يفعل هو حتى يحصل منهم على ثمن هذه الثياب . صحيح انهم يقومون بتنظيف المقهى وفضاء حاجات دون مقابل ولكنهم يحصلون على البقشيشات من الزبائن وما أكثرهم . ثم قرر ان يوجه التفكير فى هذا الأمر لوقت آخر .

(د)

ضرب ماسح الأحذية ظهر الصندوق بظهر القرشة . رفع الأستاذ . ميشو . قدمه ووضع الأخرى . واطلق نظراته فى ساحة المقهى وقد تعلقت الجريدة بين يديه . فذا كأنه يرى المقهى لأول مرة . وبدا أيضا كأنه يضجر لمجرد من نوبة للبل طويل .

تأمل ماسح الأحذية عبى . ميشو . فوجدها حمراوين بارزتين يلمع فيهما بريق غاضب لامع . كانت نظرة الأستاذ . ميشو . قد وقعت على شابين وهما من الباب الخلفى إلى الساحة الخارجية . وبعد تفكير عريب الخطا تجليهما على ترابيزة قريبة من ترابيزة . ميشو . فكاد . ميشو . يترك ترابيزته ويتجه إلى ترابيزة أخرى . ثم تمتم .

– مقهى نحس . . على باخوين والتصوص والأدعياء !

وقال ماسح الأحذية .

– نعم ؟

قال . ميشو . بغضب .

– ولا

اطلقها مع حركة من يده كأنما يطرق بها فم

ماسح الأحذية الذى ابتلع غصته وقال لنفسه مرغما . . ليتنى ما طاوعت ولد عمى . . إذ على باخوين . . وضرب ظهر الصندوق بظهر القرشة . بسرعة أزل . ميشو . قدمه ووضع الأخرى .

قال ماسح الأحذية .

– خلاص يا بيه .

قال . ميشو . وهو ينظر فى الحذاء باستزادة .

– طيب . . خلاص خلاص .

جمع مامح الأحذية أشياءه وحمل صندوق ووقف ينتظر . نظر إليه « ميشو » بغضب وشتم مشوحا

– خليني لحالي . بعدين بعدين . بالالا عور بق

انصرف مامح الأحذية وهو يوقف رعشة شفته السفلى بأسنانه .

(هـ)

كاد صاحب المقهى يقول . . فيه إيه . لولا أن مامح الأحذية انصرف فى حدوء و « ميشو » عاد إلى صحيفته كأن شيئا لم يكن . . تمتم صاحب المقهى : لا يظهر وجع الدماغ .

قال ابنه الأكبر .

– ماذا فعل الولد بالأستاذ ؟

قال صاحب المقهى .

– كلاهما ناقص عقل !

صاح الابن الأصغر باسما :

– كيف ؟

قال صاحب المقهى .

– لوح من « الطرانة » بمسح الأحذية . فمن أين له بالعقل ؟ !

قال الابن الأكبر .

– والأستاذ ميشو ؟

شرح صاحب المقهى فى قرف .

– كاتب « مرسحى » . . رجل لبارو ، وريم أصابعه حول رأسه) فمن أين له بالعقل هو الآخر ؟ !

قال الابن الأكبر .

– أنا لم أر له أية مسرحية .

قال الأصغر .

– أنا رأيته مرة فى التليفزيون .

قال صاحب المقهى

– أنا لم أره فى أية داهية .

ثم أضاف ملوحا بعد برهة

– داهية تلهم جميعا .

ومسح المقهى بنظرات قاتلة .

كان المقهى يشفى كمش الزبائن . مجموعات تتكلم وتتعارك وتتصاحك وتغنى وتسكر وتتهامس فى نفس الآن . باستثناء قلة من الزبائن ليس هناك أحد غير معروف لديه . لكل منهم عنده تاريخ حى لا يمحى من الذاكرة . فعمر المقهى يجاوز نصف قرن . وكان هو شابا صغيرا من أصل أرمنى حين تنازل له صاحب المقهى الأصلى عنه . وكان فى ذلك الزمن يجيد بزوغه التجار والأجانب والمهاجرة والقراصنة وبضاعتهم . . فلما أصبح هو صاحبه وسع دائرة الرواد وأضاف إلى النمار مقهى واسعا ملأه بالكراسى الخيزران . وقد تعلم من أولاد العرب أن الورق يجب أخذه والبدلة راكرتة . . فى أن رأى أحد الكتاب المشهورين يجلس ذات يوم على مقهاه حتى باغ فى الترحيب به واعتبر أن كل ما يتناوله الأستاذ ، من مشروب فوق حيثه فدا بليد على حساب صاحب المقهى . تقديرا منه لأهل القلم وأصحاب الرأى اخر الشريف الخ الخ . مع أنه لم يكن قد قرأ لهذا الكاتب أى حرف . ثم صار المقهى يستقبل كل يوم أعدادا هائلة من أهل القلم ثم تبعهم أهل الفن . ثم جاء أهل السياسة . وشيئا فشيئا أصبح المقهى أشبه بـ « حلة النزول » يقدم مجاميع محتشدة من فقهة من سياسيين قدامى بعضهم كان ناجحا والبعض الآخر لم يكن . ومن أدباء وصحفيين لامعين وآخرين مجهولين . وناشئين وبالغين . وخريجين وعتالين وسمع صعاليك وعشاق مدح وابناء زيب متطلعين .

أبدا لم يكن هذا ما يحلم به صاحب المقهى لو علم أن الأمور ستصل إلى هذا الحد من الفوضى لما توسع هذا التوسع الذى لا يرتاح لتصاريفه . فكل هؤلاء يجلسون ساعات بطلب مشروب واحد يحلالم . يطلبون معه خدمة ويتمرون . وكل مجموعة تعادى الأخرى عداء سافرا حادا بلا سبب مفهوم تصف الرواد بهم النصف الآخر بأنه عميل للساحت . وكل يوم والتالى ترتفع الأصوات والكراسى . وتنتج الرؤوس ويطلب المقهى إلى حارة بسكتها الشرات . صدق أحد قدماء الساسة المتقاعدين على المقهى بأن الحياة قد قسمت إلى الأبد وأن ما يحدث هو نتيجة طبيعية لما سبق حدوثه . حيث لم يعد الأدب ولا السياسة ولا الفن ولا الرياضة المنظمة يلزم من أولاد الناس من عليه القوم . إنما دخلها الدهماء الذين لا يعرفون لهم راسا من ذنب . .

ولقد تعود صاحب المقهى الا يقيم لهذه المعارك وزنا فهو يعرف انها كلها تنتهى من تلقاء شخصى . وان الأطراف المتعاركة – بشتى شان أى عراك مصرى – سرعان ما تعود إلى وضعها السابق بل انها قد تتصافى وتتصادق وينتهى أمرها أدوب وبلديات كل ذلك فى لحظة واحدة . ما يعنيه بالفعل حقا هو الخسائر التى كانت تصيبه من جراء مثل هذه المعارك الحرباء . لكنه كان عند لذة حقيقة وشاهقة فى ترك الكراسى والزبائن عرجاء ومقلقلة وفى حاجة إلى إصلاح كثير . ومن يعجبه الجلوس عليها فأهلا وسهلا . ومن لا يعجبه فليرنا عرض أكتافه . فلم يره أحدهم هذا الأمل . فراح يهادى فى تقليص الخدمة حتى لم تبق سوى عطوة واحدة بعدها يقوم الزبون ليحضر شايه بنفسه من الداخل وان أحضره من بيته يكون أفضل . لم يعد يفرق بين مناضل قديم له تاريخ . وبين مدع فشل من مدعى هذه الأيام . مع ذلك لم يكف عن عادته القديمة كلما تصادف وجود أحدهم أمام أولاده إذ يدفع قائلا إن فلانا بك من أعظم الشخصيات المصرية . وان علاقا أفندى له تاريخ مجيد . فاقتدوا به يا أولاد . وإن سعادة الباشا فعل بالاستعمار كذا وكيت . أما الأستاذ فلان فلعلكم تعرفون أنه أثار قضية كذا وكذا فى صحافتنا أيام أن كانت صحافة . لعله بمرور الزمن واتصال العشرة أدرك أن السألة كلها كلام فى كلام . وان الدنيا تنقلب من حولهم رأسا على عقب وهم بكل هدوء وبرود يطاردون الخميرة باخمة ويطلبون مكعبات الثلج باستمرار مع ان الثلج فى داخلهم جبال فوق جبال . لهذا كان يدفع فجأة مرجلا لدى أى انفعال . والله لأبيعها لأحدى الشركات وأقفع دابركم من وسط البلد . . وكان ابنه الأكبر – الميال للثلج – يشرح فى وجهه صائحا : جاءتك الفالة يا كوكو فراق ، فيحس الرجل بالخجل ويمسح المقهى بنظرات حانية .

واليوم كان يبدو عليه الخدوء ولقد كان مستعدا لحاربته ولديه مختلف الأساليب المقولة والمباشرة حتى يقنعهم بضرورة الرجوع عن البيع والأبقاء على المقهى باعتباره الوحيد فى المنطقة . مع تغيير طابعه ورفع تكاليفه إلى مستويات تليق بأصحاب المكسب وتبعد عنهم هؤلاء المتكاسلين الذين يقطعون النهار والليل بالشاى . وكانت تخايل الخواطر تلمع فى عينيه حين شد انتباهه ذلك الصباح المفاجىء . .

(و)

يقول الأستاذ « ميشو » .

– ساعة عشان انبطر معاملتك . . قلت لك شوية وارجع . . فيا إيه .

ويقول مامح الأحذية .

– لا مؤاخذة يا بيه . . فيه إيه ؟

– مش أنت اللى مامح الخرمة ؟

– أنا ؟ ! . . أنا من غير مؤاخذة ما شتغلش حالص يا بيه !

– بأقول لك إنت اللى مسحتها

– والله والله العظيم يا بيه ما مسحتها

دقق صاحب المقهى فى مامح الأحذية . فلم يتبين شيئا إذا كان هو الذى مسح أم غيره ؟ ! ذلك أن الذين يمسحون الأحذية فى مقهاه قد وصل عددهم مؤخرا إلى عشرة رجال . كلهم متشابهون يلبسون الجلاليب الأزرق والعمامة المملوكية وحمل صندوقهم لافتة باسم المقهى . لكنه قال مشجعا .

– خلاص يا أستاذ ميشو . . ندام قال مش قال يبقى مش هو

– طيب . . مع السلامة

وشوح بيده فى غيظ ولكن عينه حدقت بنظرة وعيد صارمة . الأمر الذى شد انتباه صاحب المقهى فظل على جلسته كأنه يعلن التصاعد للموقف حتى ينتهى على خير .

ما كاد مامح الأحذية ينصرف حتى ظهر مامح أحذية آخر قادم من الخارج . انبه إليه « ميشو » فمسح غترة باشرة اصبح حائرة . فجاء الولد مرتعبا وهو ينظر فى نفسه وفى الأرض .

– خير يا سعادة البيه ؟

وكانت الفكة موجودة فى كف « ميشو » استعدادا لدفعها إليه إذا قال نعم أن الذى مسحها . لكن مامح الأحذية نظر فى الحذاء فوجده لامعا جدا . فوقف حائرا .

– خير يا سعادة البيه ؟

استشاط « ميشو » غضبا . رمى بالفكة على الزابيزة .

– مش انت اللى مامح الخرمة دى ؟

– أنا ؟ . . على الطلاق بالثلاثة ما شفتها !

هكذا انطق مامح الأحذية كأنه يدافع عن نفسه ضد جريمة واضحة وضوح الشمس .

فلم الجميع وان ضحكوا فى نفس واحد مما أثار جرح الثنين . الأستاذ « ميشو » وصاحب المقهى الذى اعتدل اخيرا وقال فى حدوء .

– فيه إيه بالضبط يا أستاذ ميشو ؟ . . غاير اللى مسح الخرمة إيه ؟

تنهد الأستاذ « ميشو » بأسف .

- عايز أديله حسابه .

- بسيطة .. زمانه جاى .... وإذا كنت مستعجل سيب لنا الفلوس أو ماتسيبهاش واحنا ندفعها له ..

لسبب ما لايدريه «ميشو» بالضبط انخاظ كأن لطمة لدغه فقال :

- لاتدفع لى ولا أدفع لك .. متشكر قوى .

وأشاح بوجهه عن صاحب المقهى فى احتقار .. راحت الابتسامة الخجلى تتراقص على شفتى صاحب المقهى .. وهنا ارتفع صياح الأستاذ «ميشو» دفعة واحدة :

- تعال يا جدع انت .

كان ماسح الأحذية قد أتى .. فاقترب من «ميشو» وهو يرتجف .

- تؤمر يا سعادة البيه ؟

- نعمة ترفعك .. بتشتغل عندك انا ؟ .. بتفتش على ؟

هذا الولد أكثر السابقين جرأة وأخشنهم صوتا :

- ايه فيه ايه .. بتزعق ليه ؟

- مش انت اللى ماسح الجزمة دى ؟

- ولامسحت لك ولاشفتك .. انت حترمى بلاك على ؟ !

- طب امشى يا قليل الأدب يا سافل .

- باقول لك ايه .. ارعى ترتيد عن حدك .

- غيب ياولد .. ادخل جوه يالله .

هكذا صاح صاحب المقهى كما يصيح الإنسان فى كلبه . فانسحب ماسح الأحذية وغاب فى المقهى . و .. اعتدلت كل الجماعات فصوبت وجوهها تجاه الأستاذ «ميشو» وقد بدا عليها تحفز شرير .

أحس «ميشو» بالعيون تتقافز عليه وتكاد تثقب صدره لتنزل إلى داخله . تذرع بصلابة فرعونية ، صمم على ألا يهزم جميعا أدنى الثقات . وأن يثبت لهم أنه ليس مخطئا . وأن هنالك فى هؤلاء الأوغاد من مسح حذاءه ، وأنه لايقصد سوى تهزئ الولد الماسح وإعطائه حسابه مع درس فى الأخلاق يمنعه من هذا السلوك مع الناس المحترمين مرة أخرى .. ها هوذا يرفع ذراعه بهدوء هذه المرة صائحا برقة :

- من فضلك .. من فضلك .

فأقبل ماسح الأحذية العجوز نحوه يبتسم ومهيئا للجلوس والمسح . وما كاد يصل إلى «ميشو» حتى وضع الصندوق وجلس وأخرج الفرشاة وتناول قدم الأستاذ ميشو . فارتفعت عاصفة من الضحك زلزلت الأرض . لكن الأستاذ «ميشو» لم يتزلزل . إنما سحب قدمه من يد ماسح الأحذية العجوز برفق قائلا مع محاولة ابتسامة :

- قال يعنى مش أنت اللى ماسحها من دقايق ؟ !

اختفت الابتسامة الأزلية عن وجه الرجل بكل جد صاح :

- أنا يا بيه ؟ .. أستغفر الله .. أستغفر الله !

وراح ينظر إلى الحذاء فى تشكك واضح . وطوى شفتيه . ولم أشياءه بسرعة وابتعد .

- لاحول ولاقوة إلا بالله .. ياجابين يكفيكم شر القاعدين .

ارتفعت عاصفة الضحك من جديد أعلى مما كانت . مصحوبة بحركات دبدبة بالأقدام فى الأرض وخبط للجباه بالأكف . انتعش المقهى فجأة انتعاشة لم يشهدها من عشرات السنين . راح العيال وجاءوا بالأكواب والكئوس والأطباق فى زأططة وبشاشة . تصبب العرق من جبين «ميشو» حتى خيل لمن يراه أنه سوف يذوب بعد دقائق .

لكنه بصلابة وقوة وقف هذه المرة قدما طويلا كعمود من الدخان . وصاح مثل أولاد الليل الفرشين فى أفلام القبضات :

- تعالى .. يا [illegible] .. انت فين من زمان ؟

[illegible] ماسح الأحذية يعثر فى خوف وفى [illegible] [illegible] وقف أمام [illegible]

[illegible]

ماسح الأحذية :

[illegible]

[illegible] صاحب المقهى [illegible] إلى نفسه [illegible] هذه المسألة من أساسها [illegible] لايمكن أن تكون المسألة مجرد رغبة «ميشو» فى دفع الحساب [illegible] لابد أن فى الأمر شيئا آخر لايريد أن يفصح .

[illegible] فدخل المقهى [illegible] أوامره بجمع كل الأولاد الذين [illegible] المقهى ويعملون فى مسح الأحذية [illegible]

[illegible]

المقهى وصاح :

- ناقصين واحد .

هز العجوز رأسه :

- أيوه .. الجدع المستجد .. كان هنا وجاى .

صاح وقد «تحزبن» :

- مفيش جاى !

- ابعت أربعة رجالة يجيبوه من تحت الأرض !

وكانت الضحكات قد استأنفت الدوى حين راح «ميشو» يقلب وجوه ماسحى الأحذية عاقدا مابين حاجبيه فى اهتمام عظيم . بل إنه وقف واقترب منهم وأخذ يتفرس فى وجوههم واحدا بعد واحد .. ثم صفق كفا على كف واتجه إلى ترابيزته يكاد ينفجر من الغيظ والحيرة . تهالك جالسا . لم يكن صاحب المقهى أقل منه غيظا أو حيرة . صاح فى عصبية قائلة :

- لقيته فيهم يا سعادة البيه ؟

مط «ميشو» شفتيه فى أسف وغموض . ولم ينطق . فصرخ صاحب المقهى :

- هاتوا الولد المستجد حالا

[illegible]

- [illegible] ولوح به :

[illegible]

[illegible] فابتعد الولد عنه صائحا .

- [illegible] آخد فلوس عشان [illegible]

- [illegible] يا أمارة ما ..

- [illegible] الله ماشفتك .. [illegible]

[illegible]

هكذا صاح صاحب المقهى وهو يستند إلى [illegible]

[illegible]

يحك فيه صاحب المقهى وصفق كفا على كف وراح يتلفت حواليه :

- تبقى المسألة فيها سر ! .. لا أنت مسحت له .. ولا انت مسحت له .. ولاانت مسحت له .. أمال مين اللى مسح له ؟ .. يا ناس .. يا هوه ياللى قاعدين كلكم .. فيه حد فيكم شاف الأستاذ ميشو وهو بيمسح جزمته ؟ .. أنا شخصيا شفته .. يعنى شفته ..

- ارتفعت بعض الأصوات :

- وانا كمان .

- وأنا كمان .

- وانا كمان !

- طب حد شاف مين اللى كان بيمسح له ؟

فلم ينطق أحد .

- يبقى لازم عفريت !

هكذا قال صاحب المقهى .

فرد أحد الباشرات القدامى :

- نعم .. وعفريت من الدهماء لابد !

فاندفعت الضحكات . لكن الموقف لم يفقد توتره . وقف «ميشو» رافعا يده صائحا :

- خلاص أنا لأكدت انه هو .. هو ده اللى مسح لى الجزمة .. عرفته .

ثم أمسك الولد الأخير من خناقه وهزه بعنف ودفعه فانكفأ على الأرض :

- بس مش قادر أفهم عمل كده ليه .. فكر ليه ؟ .. يبقى لازم فيه سر .. تبقى مؤامرة .. أنا مش غبى .. أنا فاهم كويس قوى شغل التآمر العصرى يبقى شكله ايه .. وبناء عليه الجزمة دى هى أرض المؤامرة .. فيها حاجة تستدعى الإنكار وبهذا الإصرار العنيف .. إذن الجزمة دى لالزمنى .. اهه .

وخلع فردة رماها فى اتجاه صاحب المقهى وطابوره .. فاندفعت عاصفة من الرجال متقهقرة مضمرة فى طريقها اكوابا وترابيزات .

وخلع «ميشو» الفردة الثانية ورماها فى اتجاه الجامع الأخرى . فكأنما كانوا على أهبة . اندفعت عشرات الأجساد متقهقرة . فوقع ناس وديس فوقهم بالأقدام وارتفع الصراخ الوحشى الخائف المنون . انزوا جميعهم فى ركن بعيدين مثل كتاكيت فاجأها ثعبان غراق .

أما «ميشو» - لدهشة الجميع - فقد اندفع يهرول - حافيا - فى اتجاه الشارع العمومى صائحا : تاكسى .. تاكسى .. ثم اختفى فى الزحام .

(ز)

كأنما انهارت عمارة كبيرة إلى كومتين . كل منها قبع فى ركن قصى وبينهما ساحة تغطى بترابيزات مائلة وكراسى مقلبة وهشيم أكواب .. وحذاء . بعد برهة رفع صاحب المقهى وجهه فلم يجد أحدا على الإطلاق سواه . فجرجر ساقيه حتى دخل المقهى . وأمسك بسماعة التليفون .

تمت